الكلمة في المجتمع الإسلامي ذي الرؤية العالمية لا العولمية، إنما هي كلمة نابعة من طبيعة دعوته الإنسانية، وهديه للبشرية جمعاء، وهي كلمة طيبة وراسخة وتستمد هاتين السمتين من رسوخ عقيدته التوحيدية وثبات حقيقته الإيمانية، بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ثباتا تندحر أمامه كل المذاهب الباطلة والدعاوي والفلسفات المضللة حتى وان تسربلت بخداع حرية الفكر، أو لاذت ببريق زائف من مزاعم التعددية والتنوير، أو حاولت التخفي وراء مقولات العلمية والمنهجية.

أحمد رشاد حسانين- مصر

الأدب الإسلامي: وإمكانية استعادة الدور الحضاري لثقافتنا

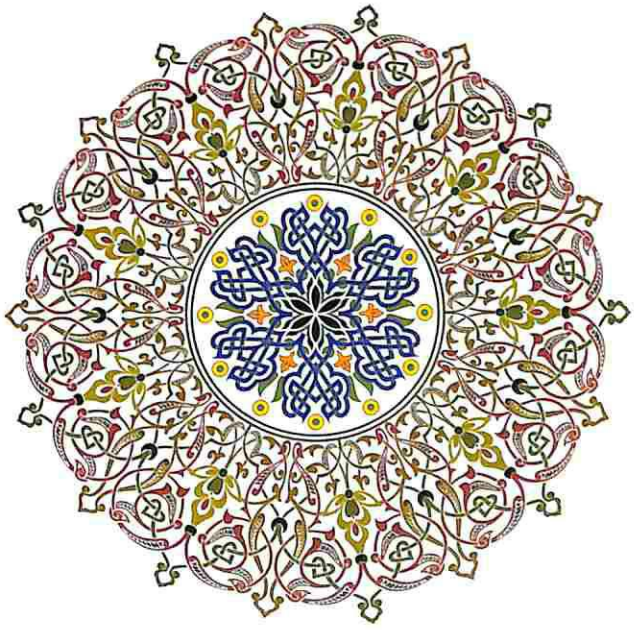

إنها كلمة توثق علاقة الإنسان بربه وعلاقته بأخيه الإنسان، وتتعامل مع معطيات المستويين الإنساني والطبيعي بمفاهيم الخير العام وتبادل منافع وطيبات الحياة مادية ومعنوية دونما استئثار أو انتقاص أو إخلال أو تشويه. إنها كلمة تعبر عن وضع إنساني عقوله كلها مدعوة لأن تستثمر فكرها، وشعوبه جميعا ودون تمايز أو تراتب – مطالبة بأن تدرك وتعمل وتعمر.

إن الكلمة المؤمنة التي تساهم في صياغة المجتمع العالمي المنشود، لم تكن في يوم من الأيام – يوتوبيا متعالية، أو مدينة فاضلة تقع خارج عالمنا، أو متنافرة مع السنن الكونية والفطر الإنسانية، وإنما نجحت في أن تنتظم كل جدليات الواقع وثنائياته المتعددة، وتقبلت الآخر متفاعلة مع كل معطيات الحضارات الإنسانية التي سبقتها أو عاصرتها وذلك في منظومة ونموذج لم يتكرر حتى في أكثر عصور الإنسانية حداثة وتنويرا، ونقصد بها، منظومة « الحضارة العربية الإسلامية»، والتي كان أبرز ما يميزها روح التسامح وعمق الإنسانية.

التسامح ذلك المبدأ الإسلامي الأصيل الذي نشر السلام من جنوب فرنسا شمالا حتى قلب القارة الأفريقية جنوبا ومن شواطئ المحيط الأطلنطي غربا حتى سور الصين العظيم شرقا، التسامح الذي أفرز علماء ومفكرين من الشرق والغرب على السواء تنافسوا وتباروا بمقياس العلم والكفاءة حتى أنجزوا مهمة

صياغة حضارة عظيمة وأتموا بها أكبر عمليات امتزاج ثقافي وتفاعل حضاري عرفته البشرية مهد لنهضة العالم ومن ثم تطوير هذه النهضة والبناء عليها وصولا إلى عصور الحداثة.

إن ما سبق لا أريد به إلا التأكيد على إمكانية استعادة هذا الدور الإيجابي الفعال بل الدور الرائد الهادي، وذلك بإثارة كوامن الحضارة القابعة في أعماق الأمة وتحفيز عوامل الحراك والحوار الثقافي والتفاعل الحضاري خاصة حين تفرض أحوال الإنسانية وظروفها حتمية هذا الحوار وذلك التفاعل، وتفرض وقائعها اليومية الدامية حتمية الطرح الحضاري الإسلامي بكلمته المؤمنة المسؤولة

ما بين قرن انصرم كان حافلا بمآسيه وكوارثه وقرن نعيشه متسارع الخطى، لاهث الأنفاس يعدو تحت ضربات سياط عولمة تنميطية استهلاكية متوحشة، وإلهاء حسي مرسخا لنفعية وهيمنة القطب الأوحد.

■ أؤكد على دور الأدب الإسلامي في مضمار هذا التحدي فقد وجب عليه أن ينفتح على الجديد من طرائق وأشكال التعبير الأدبي.

ومن هنا فإن مفكري الأمة وحكماءها وأدباءها ومثقفيها مطالبون بتفعيل آليات وأدوات الطرح الإسلامي الإنساني بكل أبعاده مع التحلي بروح التسامح ورحابة الفكر واليقظة لثوابت الهوية، وإني لأؤكد على دور الأدب الإسلامي في مضمار هذا التحدي والذي وجب عليه أن ينفتح على الجديد من طرائق وأشكال التعبير الأدبي، ويستثمر من أطروحات اللسانيات الحديثة والمعاصرة، ويفيد من مكتسبات نظريات التلقي وإنجازات علم تحليل الخطاب والدراسات الثقافية، وهو في خضم ذلك كله لا يغفل عن غايته وجوهر رسالته، وهو التعبير عن الصوت الإنساني وتبني آماله وأشواقه والتصدي لأسباب القهر ومواجهة ضرورات الاغتراب والتأزم وعوامل التهميش والإزاحة.

إن روائع أدبنا الإسلامي لتثبت أنها قادرة على الرؤية والتأثير والعطاء وأن أدبها الذي تنتمي إليه إنما هو أدب قادر على المنافسة وكسب الرهان، والأدلة على ذلك كثيرة بدءا من أدباء مسلمين نالوا جائزة نوبل أو مرشحين لها رغم تحفظاتنا عليها، وليس انتهاء بروائع أدبنا العربي والإسلامي القديم والوسيط والحديث التي تدرس في كل جامعات العالم تقريبا، ورغم ذلك لم ينل أدبنا العربي والإسلامي ما يستحقه من رواج ودرس على مستوى العالم خاصة الأدب المنتج في العصر الوسيط مثلما نرى مثلا ذلك الاهتمام الملحوظ بآداب اليونان والرومان القديمة أو آداب أوربا الوسيطة والحديثة.

والحقيقة فإن إنصاف تراثنا الأدبي العربي والإسلامي، وإثبات دوره الإنساني واعتماد الكثير من إبداعاته علامات إنسانية، إنما هو عبء تقع مسؤوليته أولا على عواتق نقادنا ودارسينا الذين شغل معظمهم فيما يبدو بأزمات وقضايا أدبنا المعاصر واستهواهم الحديث عن نظريات الحداثة وما بعدها، في وقت نحن في أشد الحاجة إلى التأصيل والتواصل مع الجذور والتعريف بتراثنا الأدبي وتقديمه برؤى عصرية وتناول دراساته بمناهج وطرق بحث جديدة وذلك يحقق فوائد عدة منها:

- إضاءة الكثير من جوانبه وإبراز ما فيه من قيم جمالية وفكرية.
- تأكيد هوية أدبنا العربي الإسلامي وخصوصيته.
- تحقيق التواصل والامتداد بعيدا عن المبالغة في التغريب أو الوقوع في هوة الصدمة والتأزم.

- المساهمة بذلك في تمهيد الطرق وتعبيد الدروب لطرح نظرية أدبية إسلامية قوية متكاملة متماسكة وإيجاد نقد عربي إسلامي يتعامل ويوجه الإبداع الإنساني.
- تقويم مسيرة الأدب العربي الإسلامي وإعادة النظر في كثير من التصورات والمفاهيم انطلاقا نحو العالمية.
- إبراز دور الأدب العربي والإسلامي في العطاء الوجداني والفكري للحضارة الإنسانية منذ نهضة الحضارة العربية الإسلامية حتى يومنا هذا. فكثير من إبداعات أدبائنا تستحق الاحترام والتقدير.

ابن زيدون

وفي الوقت الذي ندعو فيه للوقوف وإعادة التأمل خاصة فيما يتعلق بذخائر التراث، فليس ذلك على سبيل ما فرطنا «في التراث» من شيء، وليس من قبيل البكائيات على رسوم وأطلال، وليس ممارسة «دون كيشوتية» واهمة أو تبني مقولات خطاب قومي حماسي فارغ، وإنما هو خطاب الواثقين من قدراتهم ورصيدهم الحضاري والمؤمنين بحتمية تواصل واستمرارية عطائهم ودورهم، بل المشاركة بفاعلية وحضور في وضع المشهد الأدبي العالمي لما يزخر به أدبنا من قيم جمالية وإنسانية تعد أولى شروط عالمية الأدب وإنسانيته.

وإذا حاولنا أن نشير إلى بعض العلامات الدالة التي تستحق منا ومن الآخرين خارج عالمنا العربي والإسلامي المزيد من الدرس وإبراز القيم نذكر من ذلك على سبيل المثال:

- تراث شعر «العقيدة والجهاد» الذي قاده حسان بن ثابت والشعراء الإسلاميون الأوائل حين رصد هذا التراث الشعري «درامية الصراع في فترة التحول الحضاري للأمة».
- «نقائض جرير والفرزدق» أثناء ابتعاثها لقيم رفضها الإسلام ورفض طبائعها العصبية فتجمد تيارها وصار مجرد تعبير عن فترة تاريخية. وهذه الظاهرة تحسب لروح الإسلام اللافظة للتعصب والعرقية القبلية والشعوبيات القومية.
- «روائع البيان والبرهان الخطابي» عند الحجاج وزياد بن أبيه وخالد القسري وقطري بن الفجاءة وقبلهم إمام الخطباء علي بن أبي طالب. والخلفاء الثلاثة الراشدون قبل الإمام علي. وأستاذهم جميعا رسول الله ﷺ خير من أبان وأفصح.
- «غزليات الحواضر» وممثلهم عمر بن أبي ربيعة. في مقابل «غزليات البوادي» عند القيسَيْن وجميل وكثير والعباس بن الأحنف وشعراء هذيل كل ذلك يتجادل بين المثالية والحسية. ويعبر عن بيئات كان تعددها ثراء، وتنوعها إبداعا.
- ضعف النفس البشرية وقسوة خطابها للآخر تعويضا عن وضعية اجتماعية، وتعبيرا عن ذات متأزمة أو مريضة، مع عمق إنساني حين تتناول هذه النفس همومها ورثاءها الذاتي والأسري، كما هو الحال عند ابن الرومي.
- «لزوميات المعري» ودلالاتها النفسية والحضارية ورؤاها للكون والحياة.
- «أبو الطيب المتنبي» وظاهرة جموح الحلم والطموح المورد للهلكة، ونجاحه في شق طريق متفرد رغم كثرة سابقيه ومعاصريه.
- روائع الروضيات ووصف الطبيعة خاصة لدى الأندلسيين ابن خفاجة وابن الخطيب وابن زيدون.

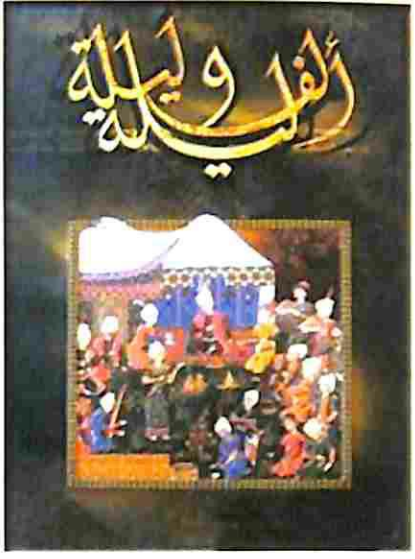

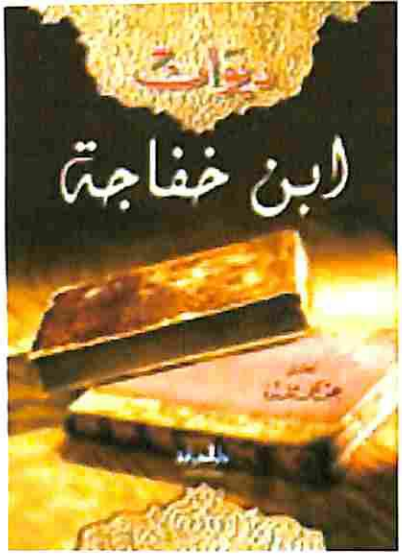

- موشحات الأندلسيين وما تركت من تأثيرات على كل من الشرق والغرب.
- إبداعات الإلهيات والحدسيات عند ابن الفارض وسبقهم لإلهيات توما الأكويني وحدسيات «برجسون» رغم اختلاف الفنون التي يتعاطاها متصوفة العرب والمسلمين من الشعراء عن تلك التي تعاطاها فلاسفة الغرب.
- أشعار المغاربة والأندلسيين في رثاء الممالك والمدن وعمق هذا الشعر بنظرته التاريخية الحضارية في تناول أسباب زوال الأمم. فضلا عما ناء به من أحمال الهموم والبكائيات وأحاديث شتى ذات شجون.
- وماذا عن تراث من النثر الفني الراقي أداء ومضمونا بدءا بعبدالحميد الكاتب وليس انتهاء بالقاضي الفاضل.
- ولسنا في حاجة إلى الإشارة لإبداع الخيال العربي والإسلامي في «ألف ليلة وليلة» التي شارك في إنتاجها كل الشعوب الإسلامية تقريبا وصبغتها الروح العربية بصبغتها. هذا فضلا عن روعة هذا الخيال واستشرافه في «طوق الحمامة» و « حي بن يقظان».

■ تثبت روائع أدبنا الإسلامي أنها قادرة على الرؤية والتأثير والعطاء وأن أدبها الذي تنتمي إليه إنما هو أدب قادر على المنافسة وكسب الرهان.

والسؤال: هل نالت مثل هذه العلامات من التقدير والمكانة ما نالته أعمال كثيرة جدا لرموز الأدب الغربي عبر كل عصوره، بداية بهوميروس وسوفوكليس وليس انتهاء بآرثر ميللر وإدجار آلان بو، وسومرست موم، و هـ.ج ويلز، وسارتر، وكافكا، وجيمس جويس، مرورا بدانتي وسيرفانت وجوته وشيللر وشكسبير وديكنز وهوجو ولامارتين وهمنجواي وغيرهم من الذين اعتبرهم الغرب مراكز للأدب العالمي.. وآداب الآخرين مجرد صدى وهوامش!

هل تم الاعتراف بعالمية وجدارة أعمالنا وأعلامنا، مثلما تم ذلك مع أعلام الآداب الغربية؟

إن ما قام به بعض المستشرقين «خارج إطار الكلونيالية (النقد الاستعماري) من تعريف وتقديم لبعض علامات وأعلام تراثنا الأدبي الزاخر، لا يعدو أن يكون جهدا تم في إطار أكاديمي محدود، فمن الواضح أن نظرة الغرب لإنجازاتنا قد جانبها الكثير من الصواب نتيجة ازدواجية معاييره وقناعة الغرب الخاطئة بالتفوق والتمايز العرقي، تلك القناعة التي لم تتجاهل المنجز الأدبي العربي والإسلامي فحسب، بل كثيرا من علامات الأدب العالمي في لغات وآداب أمم أخرى غير غربية.

وأرى أن ما يبدو من تفاؤل بعض نقادنا حين يتحدثون عن انكسار «خطاب الكلونيالية» وتخلخل مراكز المشهد الأدبي والنقدي، ونقض البنى التي تنطوي على تراتب ثنائي للأعلى ثم الأدنى، والحديث عن قبول الآخر وتعددية الأصوات... كل ذلك في حاجة إلى إعادة نظر والتحلي بالروية في إصدار الحكم عليه.

وما زلت أعول بداية على جهدنا الذاتي وقناعاتنا بجدارة أدبنا واتساع إنسانيته، وأحقيته بالحضور في صدارة المشهد الأدبي العالمي، وما هو منوط به من تبعات ومسؤوليات في تقويم مسيرة الخطاب الأدبي وإنتاج النماذج العليا له، وهو طموح ليس - مع الإخلاص والجهد - ببعيد■